شعر
الوقوف على الأطلال
من الجاهلية إلى نهاية القرن الثالث

- ٣ -

هذه أشهر الصور التي رسمها شعراء العرب في الجاهلية في وصف آثار الديار . ونرى في هذه الصور الاهتمام بعنصر اللون كبيراً جداً . ثم يأتي الاهتمام بعنصر الشكل في الدرجة الثانية . ونقصد بالشكل هنا أشكال آثار الديار بخطوطها المتعرجة ، وأشكال الحروف والسطور المكتوبة ، والأشكال في النقوش والزخارف بخطوطها المتداخلة المتعرجة أيضاً . على أنه يصعب علينا الفصل بين الألوان وبين الأشكال حين النظر إلى هذه الصور .

وكذلك نرى في هذه الصور الإيجاز الشديد ، والاكتفاء بالإشارة السريعة إلى عناصر الصورة ، والانصراف عن التفصيل والاستقصاء في بيان الألوان والأشكال في معرض التصوير . وهذه صفة من صفات طريقة التعبير والتصوير عند شعراء الجاهلية . فهم يقفون على الخطوط العامة والنواحي التي تلفت انتباههم في نظرتهم إلى الأشياء ، دون الأجزاء الدقيقة ، والنواحي الخفية فيها . ويكتفون دائماً بالتلميح السريع ، والإشارة البليغة ، في وصف هذه الأشياء .

* * *

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

هذه الصور التي بيناها آنفاً ، وحللناها هي أشهر الصور التي رسمها الشعراء لآثار الديار ، وأجملها في شعر الوقوف على الأطلال ، وأكثرها دوراناً في هذا الشعر . وهناك إلى جانب هذه الصور صور أخرى لا تقل عنها جودة وجمالاً . ولكنها أقل منها دوراناً في شعر الوقوف على الأطلال . وفي مُكْنتنا أن نقول إن الصورة منها لم ترد إلا مرة أو مرتين في هذا الشعر . وهي مع ذلك جميلة طريفة ، ولا يحسن بنا أن نمضي دون أن نذكر عدداً منها ، ونقف عندها وقفة قصيرة .

وأولى هذه الصور وأشهرها هي تشبيه آثار الديار بظهر الأرقم ، وهو الثعبان المنقط . قال بشر بن أبي خازم الأسدي في ذلك (١) :

لمن الديارُ غَشيتُها بالأَنْعُمِ تبدو معارفُها كلون الأرقمِ (٢)

لعبتْ بها ريحُ الصَّبا ، فتنكَّرتْ إلا بقيـــةَ نُؤْيِها المتهدِّمِ (٣)

هذه صورة طريفة في وصف آثار الديار . ولكن الشعراء لم يرددوها كثيراً في شعر الوقوف على الأطلال على الرغم من طرافتها . وهي تشبه في تركيبها الصور المشهورة التي رأيناها آنفاً . إلا أن عنصر التشبيه ضعيف في هذه الصورة ، لقلة الشبه بين آثار الديار وبين ظهر الثعبان الأرقم . وهذا هو السر في قلة دوران هذه الصورة في شعر الوقوف على الأطلال ، فيما نرى .

* * *

(١) ديوانه ١٧٧ ـ ١٧٨ .

(٢) غشيتها : أي أتيتها . والأنعم : اسم موضع . ومعارف الديار : آثارها التي يعرفها الشاعر ، والأرقم : الثعبان المخطط أو المنقط ، مأخوذ من الرقم ، وهو النقش .

(٣) تنكرت : تغيرت ولم تعد معروفة . والنؤي : حفيرة كالخندق تحفر حول البيت لتمنع عنه ماء المطر وتدفع السيل .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وهذه صورة ثانية طريفة أيضاً ، شبّه فيها جرير آثار الديار بريش الحمام . قال جرير [١] :

لما أتَيْنَ على حطّابتيْ يَسَرٍ أبدى الهوى من ضمير القلبِ مكنونا[٢]
وشبّهَ القومُ أطلالاً بأسْنُمةٍ ريشَ الحمام، فزِدْنَ القلبَ تحزينا[٣]

يشبّه جرير في البيت الثاني آثار الديار بألوانها الكامدة على وجه الأرض ، وخطوطها المتعرجة ، بريش الحمام الأورق المتراكب بعضه فوق بعض في خطوط متتابعة . هذه الصورة فريدة غريبة في شعر الوقوف على الأطلال ، لم أجدها إلا في شعر جرير دون غيره من الشعراء في الجاهلية والإسلام . وما أرى لذلك سبباً سوى أن شعراء الجاهلية لم يعرفوا هذه الصورة . فلما جاء بها جرير لم يتبعه فيها الشعراء . فظلت لذلك غريبة فريدة .

* * *

ومن الصور الطريفة في هذا المجال تشبيه آثار الديار بالمذاهب [٤] ، وهي جلود مزينة منقوشة ، فيها خطوط مذهبة ، متتابعة بعضها في إثر بعض . وهي من أدوات الزينة عند النساء ، ينتطقن بها .

قال قيس بن الخطيم في ذلك [٥] :

أتعرفُ رسماً كاطّراد المذاهبِ لعَمْرَةَ وحشاً غيرَ موقف راكبِ[٦]
ديارُ التي كادت ، ونحن على مِنىً ، تحُلُّ بنا ، لولا نَجاءُ الركائبِ[٧]

(١) ديوانه ٥٣٢ .
(٢) أتين : أي الأظعان أتين .
(٣) أسنمة : اسم موضع . وزدن : أي الأطلال زدن القلب تحزيناً .
(٤) واحدها مُذْهَب .
(٥) ديوانه ٣٣ ـ ٣٥ .
(٦) اطراد المذاهب : أي تتابع الخطوط المذهبة التي تزين المذاهب . وحشاً : أي خالياً . وغير موقف راكب : أي هي خالية إلا من وقوف أحد المسافرين بها بين حين وآخر ، ويريد الشاعر بهذا المسافر الراكب نفسه .
(٧) تحل بنا : تجعلنا نحل وننزل . ونجاء الركائب : سرعة سير الركائب ، وهي الإبل .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

تبدَّتْ لنا كالشمس تحت غمامة بدا حاجبٌ منها ، وضنَّتْ بحاجبِ

والتشبيه واقع في هذه الصورة بين رسوم الدار بألوانها وأشكالها وبين هذه الجلود المزينة الملونة ذات الخطوط المتتابعة . وهي صورة قليلة الورود أيضاً ، لم يتداولها الشعراء كثيراً في مجال وصف آثار الديار .

* * *

ووجدت صورة نادرة غريبة أيضاً ، شبَّه فيها النابغة الذبياني آثار الديار وأثر هبوب الرياح عليها بالحصير المنمق المزين . قال النابغة (١) :

توهَّمتُ آياتٍ لها ، فعرفتُها لستَّة أعوام ، وذا العامُ سابعُ (٢)

كأن مَجَرَّ الرامساتِ ذُيولَها عليه حصيرٌ نَمَّقَتْه الصوانعُ (٣)

على ظهر مَبْناةٍ جديدٍ سُيورُها يطوفُ بها وَسْطَ اللَّطيمة بائعُ (٤)

وقف النابغة على الديار بعد سبعة أعوام من الفراق ، فعرف آثارها وآياتها بعد نظر وتوهم . ورأى أن الرياح قد نسفتها ، وجرَّت فيها ذيولها ، وسفت عليها الرمال والغبار . فأحدثت فيها خطوطاً متتابعة متعرجة . فبدت لعينيه لذلك كأنها قطعة حصير صنعته النساء الصوانع ، ونمقت صنعه .

هذه صورة نادرة وجميلة حقاً ، وهي مع ذلك فريدة ، لم يتداولها الشعراء كثيراً ، ولم أجدها إلا في شعر النابغة الذبياني . وما أظن ذلك إلا لانعدام عنصر اللون في هذه الصورة . فالتشبيه فيها قائم على عنصر الشكل وحده . وذلك أن الحصير يشبه آثار الديار بخطوطه المتتابعة المتعرجة . ولكنه لا يشبهها

---

(١) ديوانه ٥٠ .

(٢) آيات لها : أي علامات للديار . لستة أعوام : أي بعد ستة أعوام .

(٣) الرامسات : الرياح التي ترمس الآثار ، أي تطمسها وتدفنها .

(٤) المبناة : النمط الذي يلف على الحصر حين عرضها للبيع . واللطيمة : بمعنى السوق التي فيها طيب .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

في اللون ، لأن الحصـــير لا يكون ملوناً ، وإنما لونه هو لون القصب أو القش الذي يصنع منه .

وقد يكون لندرة هذه الصورة في شعر الوقوف على الأطلال سبب آخر ينضاف إلى السبب الأول ، وهو قلة استعمال العرب الحصيرَ في بيوتهم في البادية . فهو لم يكن لذلك من مرئيات الشعراء المألوفة في حياتهم . ويكثر صنع الحصير واستعماله في العراق ، لكثرة القصب فيه . والنابغة قد عاش طويلاً في العراق على صلة بالنعمان ملك الحيرة . ونرى أنه قد شاهد الحصير هناك ، وتكررت مشاهدته له ، حتى انطبعت صورته في ذهنه ، ثم بدت في شعره .

وصف بقايا الديار

اهتم الشعراء ببقايا الديار في شعر الوقوف على الأطلال ، واعتنوا بوصفها وتصويرهـــا ، وأكثروا من ذلك ، كما فعلوا في وصف آثار الديار وتصويرها بجملتهـا .

وبقايا الديار قليلة ممدودة على العموم . ومع ذلك كان الشعراء يهتمون ببعض البقايا دون بعض ، على الرغم من قلتها . وكانوا يختارون بعضها ، فيخصونه بالوصف والتصوير ، ويهملون بعضها ، فلا يذكرونه إلا قليلاً . ويبدو لنا أن السر في هذا الاختيار هو العناية بالبقايا التي تساعد الشعراء على الوصف ، وتثير قرائحهم ، وتفسح مجالاً لأخيلتهم في التصوير .

ونحن ، على طريقتنا المألوفة في البحث ، نعرض عن إحصاء هذه البقايا التي عُني بها الشعراء ، ونقتصر في الدراسة على البقايا والأجزاء التي أكثروا من ذكرها ووصفها في شعر الوقوف على الأطلال ، وتداولوها بالتصوير . ونكتفي بذلك عن التفصيل والاستقصاء .

* * *

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وأهم بقايا الديار ، وأكثرها دوراناً في الشعر هو الرماد ، أي رماد النار الذي يخلفه الراحلون وراءهم في الديار . فقد أكثر الشعراء من ذكر الرماد في شعر الوقوف على الأطلال ، ووصفوه في صور كثيرة . وتمتاز هذه الصور جميعاً بهدوء وسكون غريبين ، يبعثان في نفس الإنسان الحزن والكآبة ، ويثيران فيها الأسى .

وينظر الشعراء في هذه الصور جميعاً إلى شيئين اثنين في الرماد دائماً ، هما لونه أولاً ، ومكانه بين الأثافي ثانياً . وهذان الشيئان هما مواد تصوير الرماد ، ومداره في شعر الوقوف على الأطلال .

أما في مجال التصوير الذي يدور على لون الرماد فقد جرى الشعراء على تشبيهه إما بالكحل ، وإما بطير أورق ، حمامة أو قطاة .

قال الأسود بن يعفر النهشلي في تشبيه الرماد بالكحل (١) :

هل بالمنازل إن كلَّمتها خَرَسُ   أم ما بيانُ أثافٍ بينها قَبَسُ (٢)
كالكحل أسودَ ، لأْياً ما يكلِّمنا   مما عفاه سحابُ الصَّيِّفِ الرَّجُسُ (٣)

يقصد الشاعر بالقبس ها هنا الرماد بين الأثافي . وهو يُعْنَى بلونه كما نرى ، ويصوره بتشبيهه بالكحل الأسود . هذه الصورة قليلة الورود في شعر الوقوف على الأطلال ، لم يُلِحَّ عليها الشعراء كثيراً . وليس فيها مزيد جمال ، ولا كبير غناء . ولعل هذا هو السبب في قلة ورودها في هذا الشعر وانصراف الشعراء عنها .

---

(١) شعره في ملحقات ديوان الأعشى ٣٠٠ .
(٢) القبس : هو قبس النار في الأصل ، ويريد به الرماد هنا .
(٣) لأياً : بطيئاً . الصيف : مطر الصيف ، وهو الربيع عند العرب . والرجس : التي ترتجس بالمطر .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

وأشهر من هذه الصورة وأجمل ، وأكثر منها دوراناً في شعر الوقوف على الأطلال ، الصورة التي رسمها الشعراء في مجال تصوير الرماد بتشبيهه بالطير الأورق . قال الحطيئة في ذلك (١) :

لمـــن الديارُ كأنهنّ سطورُ ... بلِوَى زَرُودَ سَفَى عليها المُورُ (٢)
نُؤْيٌ ، وأطلسُ كالحمامة ماثِلٌ ... ومُرَفَّعٌ شُرُفاتُه محجـــورُ (٣)

يقصد الحطيئة بالأطلس في البيت الثاني الرمادَ الأطلس ، أي الأسود الذي يشوبه بياض . وهو يُعْنَى بلونه وشكله ، ويصوره بتشبيهه بالحمامة من حيث اللون أولاً في قوله « وأطلس كالحمامة » ، ومن حيث الشكل ثانياً في قوله « ماثل » . والحمامة حين تجثم على الأرض تبدو بارزة عنها قليلاً ، كما تبدو كومة الرماد . وهذا معنى قول الحطيئة « ماثل » .

والملاقة في هذه الصور بين الرماد وبين الأشياء التي يشبهونه بها حين التصوير هي دائماً علاقة اللون . وهو اللون الأبيض الذي يشوبه بياض خفيف على الأغلب ، وهو لون الرماد . وهذا اللون يبعث الهدوء والسكينة في النفس ، بسبب توسطه بين اللون الأسود الوقور وبين اللون الأبيض البهيج . فهو يأخذ من هذا ، ويأخذ من هذا ، ويكون وسطاً بينهما ، فيه من الوقار شيء ، وفيه من البهجة أثر . وهذا المزيج بين الوقار والبهجة هو الذي يبعث الهدوء والسكينة في نفس الإنسان . وتنضاف إلى ذلك المعاني الأخرى التي تأتي قبل الصورة وبعدها في شعر الوقوف على الأطلال ، فتزيدها هدوءاً وسكينة ، حتى يصل الأمر بالإنسان إلى الشعور بالحزن والكآبة والأسى في تأمل هذه الصور .

---

(١) ديوانه ٣٢٦ .
(٢) المور : الغبار الذي تذروه الريح . وسفى عليها : هبَّ عليها مع الريح .
(٣) النؤي : حفرة حول البيت كالخندق تمنع عنه ماء المطر . والمرفع شرفاته : المسجد .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وأما في مجال تصوير الرماد نظراً لمكانه وموقعه بين الأثافي الثلاث فقد سار الشعراء على تشبيهه بالبَوّ (١) بين النوق المواطف ، أو تشبيهه بالرجل السقيم بين النساء العائذات (٢) .

قال عبد الله بن الدمينة في الصورة الأولى (٣) :

فلم يبقَ من آياتها غيرُ مسجدٍ ومُسْتَوْقَدٍ كالبَوّ بين المواطفِ (٤)

يصف ابن الدمينة الرمادَ بين الأثافي هنا والشبه قريب في الواقع بين الرماد في مكانه ، وقد أحدقت به الأثافي الثلاث ، وبين البو في مكانه أيضاً ، وقد أحاطت به النوق المواطف تشمّه ، وتعطف عليه والهة ، وتحن حنيناً موجعاً .

هذه الصورة محسوسة ، يستمدها الشاعر من واقع الحياة اليومية في بيئة البادية . فكثيراً ما يلجأ الأعراب ، ولا سيما في أيام الربيع حين نتاج الإبل ، إلى إقامة تمثال البو ، ويعمدون إلى خداع النوق عن اللبن بهذا التمثال إذا انتُزِعَتْ منها أولادها بالموت أو بالذبح .

وقال كُثَيِّر عَزَّةَ في الصورة الثانية (٥) ، وهي تصوير الرماد بالرجل السقيم بين النساء العائذات :

أمِنَ الِ قيلةَ بالدَّخول رسومُ وبحَوْملٍ طللٌ يلوح قديمُ

---

(١) البو : جلد ولد الناقة الصغير يحشى بالتبن أو الحشيش اليابس ، ويعرض على النوق التي تموت أولادها أثناء الولادة أو بعدها بقليل ، فتعطف عليه ، وتدر باللبن ، وهي العواطف .

(٢) النساء اللواتي يعذن المريض ويرقينه لشفائه من المرض ، وطرد الجن أو الأرواح الشريرة عنه .

(٣) ديوانه ١٣٥ .

(٤) المستوقد : المحترق ، وهو يريد به الرماد ها هنا .

(٥) ديوانه ١/٢٥٣ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

لعبَ الرياحُ برسمه ، فأجدّه جُونٌ عواكفُ في الرماد جُثوم(١)
سُفْعُ الخدود، كأنهن ، وقد مضتْ حِجَجٌ ، عوائدُ بينهن سقيم(٢)

جعل الشاعر في هذه الصورة الرمادَ كالرجل السقيم ، وقد قامت النساء العوائد من حوله ، فأطفن به لمعالجته وتمويذه . ونرى في الصورة الأثافي ، وهي حجارة القِدْر ، وقد بدت قائمة محيطة بالرماد كالنساء المطيفة بالرجل السقيم .

وعناصر هذه الصورة عناصر محسوسة كما نرى ، يستمدها الشاعر من واقع الحياة اليومية في بيئة البادية . فعجائز النساء هن اللواتي يقمن بمداواة المرضى ومعالجة الجرحى في البادية . حتى إن بعض النساء يتخذن ذلك مهنة يزاولنها بين أبناء القبيلة ، ويُعْرفن بها . ومن أساليبهن في المداواة الرُّقية والتعويذة ضد الشياطين والأرواح الشريرة ، وتعليق بعض الأشياء والأدوات على المريض أو الأشياء القريبة منه لرد العين الصائبة .

* * *

والشيء الثاني الذي أكثر الشعراء من ذكره ووصفه في شعر الوقوف على الأطلال هو الأثافي ، وهي الحجارة التي تنصب عليها القدر . وعددها ثلاثة أحجار ، توضع اثنتان منها متقابلتين من يمين وشمال ، وتوضع الثالثة في الخلف . وتوقد النار تحت القدر بين الأثافي الثلاث .

(١) أجده : أي جدده . والجون : جمع جَوْن ، وهو الأسود هنا ، ويريد بها الأثافي التي اسودّت بالنار . وعواكف : أي قائمة ثابتة .

(٢) سفع الخدود : أي سود الخدود ، محترقة من أثر النار ، يصف بهذا الأثافي . والحجج : جمع حِجّة ، وهي السنة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقد درج الشعراء منذ الجاهلية على وصف الأثافي وتصويرها في شعر الوقوف على الأطلال . وتتابعوا جميعاً على تشبيهها بالحمائم الجاثمة ، في هذا التصوير . قال زهير بن أبي سلمى في ذلك (١) :

غشيتُ الديارَ بالبقيع فثهمدِ ... دوارسَ قد أقوَيْنَ من أم معبدِ (٢)
أربَّتْ بها الأرواحُ كلَّ عشيةٍ ... فلم يبق إلا آلُ خَيْمٍ مُنَضَّدِ (٣)
وغيرُ ثلاثٍ كالحمام خوالدٍ ... وهابٍ مُحيلٍ هامدٍ مُتلبِّدِ (٤)

والثلاث في البيت الأخير هن الأثافي الثلاث . وقد صورها زهير ، وشبهها في تصويره بالحمام كما نرى .

والشبه واقع فعلاً بين أثافي القدر وبين الحمام في عنصرين اثنين ، يلفتان النظر ، ويدعوان أخيلة الشعراء إلى تشبيه الأثافي بالحمام . هذان العنصران هما اللون ، والشكل أو المظهر الخارجي . فأما من حيث اللون فالأثافي والحمام سفع الألوان غبراء ، أي أنها سود ، يشوب سوادها بياض قليل ، فتضرب إلى الغُبْرة . وهذا هو لون الحمام البري ، وهي القهاري التي يقصدها الشعراء في مثل هذه الصور . وهذا هو أيضاً لون الأثافي الذي تكتسبه بعد أن تحرقها النار ، وتسوّد جوانبها .

وأما من حيث الشكل أو المظهر الخارجي فالأثافي تبدو في أماكنها مجتمعة لاصقة بالأرض ، ساكنة هادئة ، في وضع معين . وكذلك الحمام ، فهو عندما يقع على الأرض يجثم عليها ، ويبدو لاطئاً بها ، لا يبدي حراكاً .

---

(١) ديوانه ٢١٩ ـ ٢٢٠ .
(٢) أقوين : أي خلون من أم معبد ، من أقوى المكان ، إذا رحل عنه أهله وخلا .
(٣) أربت : أقامت . والأرواح : الرياح . وآل الخيمة : خشباتها ، واحدها آلة .
(٤) الهابي : الرماد الذي عليه كَبْوة ، وهي الغبار ، من طول القدم .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وهـذه أبيات لحسان بن ثابت يصور فيها الأثافي أيضاً . وهي أوضح وأجمل من الصورة التي أتى بها زهير في أبياته . قال حسان (١) :

أشـاقك من أم الوليد ربوعُ بلاقعُ ما من أهلهن جميعُ (٢)
عفاهنَّ صيفيُّ الرياح ، وواكفٌ من الدَّلْو رجَّافُ السحاب هموعُ (٣)
فلم يبقَ إلا مَوْقدُ النار حوله رواكدُ أمثالُ الحمام وُقوعُ (٤)

ونرى الأثافي الثلاث ، في هـذه الصورة ، ساكنة هادئة حول موقد النار ، كأنها بألوانها وأشكالها حمائم جاثمة على الأرض .

هـذا وقد رأينا آنفاً في معرض كلامنا على الرماد ووصفه ، في هذا الموضوع ، أن الشعراء قد صوروا الأثافي ، وشبهوها في أماكنها حول الرماد بالنوق العواطف التي تطيف بالبوّ ، وتعطف عليه . ورأينا كذلك أنهم شبهوها في هذا المجال بالنساء العوائذ اللواتي يطفن بالرجل السقيم ، ويَعُذْنه لشفائه من السقم . ولا نريد الوقوف عند هاتين الصورتين ، ونكتفي بما قلناه في شرحها آنفاً .

* * *

وهناك شيء ثالث ردَّد الشعراء ذكره كثيراً في شعر الوقوف على الأطلال ، وهو النُّؤْيُ (٥) من بقايا الديار . والنؤي حفير أو خندق صغير يحفر حول

---

(١) ديوانه ٢٥٧ ـ ٢٥٨ .
(٢) بلاقع : أي خالية . وجميع : مجتمعون .
(٣) واكف من الدلو : أي مطر من برج الدلو . والهموع : الذي يسيل .
(٤) رواكد : أي ساكنة ، ويريد بها الأثافي الثلاث الساكنة حول موقد النار . ووقوع : أي واقعة على الأرض جاثمة .
(٥) ويجمع النؤي على النُّؤِيّ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بيوت الأعراب في البادية ، لدفع مياه المطر والسيل ، ومنعها من دخول البيت . وذلك أن المياه حين تجري تنحدر في هذه الحفرة ، وتسيل فيها ، وتتفرق في الأرض بعد ذلك بعيداً عن البيت .

وقد وصف شعراء العرب النؤي ، وأكثروا من وصفه وتصويره . وشبهوه في أثناء هذا الوصف بحوض الماء ، ولا سيما حوض الماء المهدم . قال النابغة الذبياني في ذلك (١) :

توهمتُ آياتٍ لهـا فعرفتُهـا لستة أعوام ، وذا العام سابعُ (٢)
رمادٌ ككحل العين لأْياً أُبينُه ونؤيٌ كجِذْمِ الحوض أثلمُ خاشعُ (٣)

يذكر النابغة النؤي بين بقايا الدار كما نرى ، ويصوره ، فيشبهه في هذا التصوير بطرف الحوض ، لاستدارة النؤي حول البيت ، كما يستدير الحوض ، ثم لارتفاع حافة النؤي عن الأرض لحبس المـاء ، كما ترتفع حافة الحوض لحبس الماء أيضاً . وهاتان هما العلاقتان بين النؤي وبين الحوض في التصوير ، أي الاستدارة وارتفاع الحافة عن الأرض .

والحوض الذي يذكره الشعراء في مجال التصوير هنا هو حوض الماء الذي كان الأعراب يقيمونه قريباً من بيوتهم ، ويجمعون فيه الماء المستخرج من الآبار التي يبنى الحوض بالقرب منها ، أو الماء المستجلب على ظهور الإبل من الغدران التي تتجمع فيها ماء المطر . وكان الأعراب يبنون هذه الأحواض بالطين والحجارة ، وحين يرحـلون عن الدار كانوا يتركونه كما هو ، كما

(١) ديوانه ٥٠ .
(٢) الآيات : العلامات . لستة أعوام : أي بعد ستة أعوام .
(٣) لأياً : أي بطيئاً . وجذم الحوض : أصل حافته الذي يبقى بعد أن يتهدم . وخاشع : لاصق بالأرض من الخراب .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

يتركون سائر البقايا . فيتهدم مع الزمن ، وتتثلم أطرافه ، كما ذكر النابغة في شعره . فالصورة مستمدة من بيئة الأعراب في البادية كما نرى .

وقد رسم شعراء العرب صورة أخرى للنؤي حين وصفهم له ، وهي تشبيه النؤي بسوار من العاج . قال كثير عَزَّة في صفة نؤي (١) :

عرفتُ لسعدى بعد عشرين حِجَّةً بها دَرْسَ نؤيٍ في المحلة منحني (٢)

قديمٍ كوقف العاج، ثُبِّتَ حوله مغارزُ أوتاد ، برَضْمٍ مُوَضَّنِ (٣)

والعلاقة بين النؤي وبين سوار العاج في هذه الصورة ، أو وجه الشبه بينها ، هو الاستدارة وارتفاع الحافة أيضاً ، كما في الصورة الأولى التي شبَّه الشعراء فيها النؤي بحوافي الحوض .

والأسورة المصنوعة من العاج أو الذَّبْل من الحلي التي كان نساء الأعراب في البادية يتزينَّ بها . وهن إلى اليوم يتحلين بحُلىً لا تختلف كثيراً عن هذه الأسورة التي ذكرها الشعراء في القديم .

* * *

وأخيراً نصل إلى الوتد ، وهو الشيء الرابع من بقايا الديار الذي اهتم به الشعراء في شعر الوقوف على الأطلال . فذكروه في شعرهم ووصفوه وصوروه . ولكنهم لم يكثروا من ذكره مثلما أكثروا من ذكر الأشياء الأخرى . وقد شبهوه في أثناء الوصف والتصوير بالشجيج أو المشجوج ،

---

(١) أمالي المرتضى ٣٤/٢ ، وديوانه ٥٨/٢ .

(٢) الحجة : السنة . بها : أي بالدار . ودرس : أي دارس .

(٣) وقف العاج : سوار العاج . برضم موضن : أي النؤي مركوم بحجارة بعضها فوق بعض .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وهو الرجل الذي شُجَّ رأسه . قال حسان بن ثابت في ذلك (١) :

لمن منزلٌ عافٍ كأن رسومَه خياعيلُ رَيْطٍ سابريٍّ مُرَسَّمِ (٢)
خلاءُ المبادي ، ما به غيرُ رُكَّدٍ ثلاثٍ كأمثال الحمـــائم جُثَّمِ (٣)
وغيرُ شجيجٍ ماثلٍ حالفَ البِلى وغيرُ بقايا كالسحيق المنمنم (٤)

والعلاقة بين عصا الوتد وبين الرجل الشجيج هي أن الوتد قد ينكسر حين يدق في الأرض ، فينفصم إلى شطرين تكون بينها فرجة ضيقة ، تبدو كالشجة في رأس الإنسان ، فتنبه الشعراء لذلك ، أي التشابه بين الشجة في رأس الإنسان وبين الشق في رأس الوتد ، وجعلوه وجهاً للشبه ، واتخذوه عنصراً للتصوير كما نرى .

وهناك عنصر آخر نفسي في هذه الصورة ، وهي مسألة الضرب والدق . فالشجة في رأس الإنسان أثر من آثار الضرب ، والانكسار والانفصام في رأس الوتد أثر من آثار الضرب والدق أيضاً . وهذا هو الدافع النفسي الذي جعل الشعراء يقيمون هذا التشبيه في أثناء تصوير الوتد إلى جانب التشابه في الشكل أو المظهر الخارجي . فالعلاقة بين عناصر التصوير في هذه الصورة علاقة مادية ونفسية معاً .

وهناك صورة أخرى رسمها الشعراء للوتد في أثناء تصويره ، وهي تشبيهه بالرجل الأشعث ، وهـــو الذي قد تشعث شعره ، أي تفرق .

---

(١) ديوانه ٣٩٢ ـ ٣٩٣ .
(٢) خياعيل : أي قطع ، واحدها خيعل . والريط : ثوب لين طويل الذيل . والسابري : المنسوب إلى سابور ملك الفرس . والمرسم : المزين بالرسوم .
(٣) المبادي : الظواهر . والركد الثلاث : الأثافي الثلاث .
(٤) الشجيج : يريد به الوتد الذي انكسر أعلاه وانفرق فرقين . والماثل : القائم البارز . والسحق : الثوب السحيق ، وهو البالي . والمنمنم : المزين بنقوش صغيرة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

قال حسان بن ثابت في ذلك أيضاً (١) :

أهاجكَ بالبيداء رسمُ المنازلِ نعم، قد عفاها كلُّ أسْحَمَ هاطلِ (٢)

وجرَّت عليها الرامساتُ ذيولها فلم يبق منها غيرُ أشعثَ ماثلِ (٣)

والعلاقة بين الوتد وبين الشعر المشعَّث هي أن أجزاء الخشب وأليافه في رأس الوتد تتفرق من أثر الضرب والدق ، وينفصل بعضها عن بعض دون أن تتقطع ، فتبدو على شكل خيوط متفرقة متشابكة في أعلى الوتد القائم ، كما تبدو اللمة الشعثاء على رأس الرجل .

* * *

هذه أهم الأشياء التي ذكرها الشعراء من بقايا الديار ، وصوروها في شعر الوقوف على الأطلال . وقد عرضنا للصور أو التشبيهات التي أوردوها في معرض الوصف والتصوير . وحاولنا أن نبين أجزاء هذه الصور ، والعلائق التي وجدوها بين هذه الأشياء من بقايا الديار وبين الأشياء التي شبهوها بها . وقد رأينا أن معظم هذه الصور مستمدة من حياة الأعراب في بيئة البادية .

ولقد كانت طريقتنا في هذا العرض والبيان هي طريقة الإيجاز ، والإشارة إلى الأمور العامة ، وترك الأمور الصغيرة التي تدخل في الدقائق ، لأن الاهتمام بها ، والبحث فيها يطول ولا ينتهي . وهو بعد لا يغني كثيراً في مثل هذه الدراسة .

(يتبع) الدكتور عزة حسن

(١) ديوانه ٣١٣ .

(٢) الأسحم : السحاب الأسود .

(٣) الرامسات : الرياح التي تثير التراب فترمس به الآثار ، أي تدفنها . والأشعث : يريد به الوتد الذي قد تشعث أعلاه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net